

ولكن هذا

لأننا نأخذ كما نرسل

يهدد حيناً على الإطلاق !

جرى كل شيء في مجراه الطبيعي ..
وشمرت أنى في جها أسعد من على بسية
الأرض خطاً وجدا ! كنا نلتقي في الأماكن
العامة وانزهات الخلوة .. وكان حديثنا
هو حديث الحب الشائق ، ولم يحدث
أن فكرت في طفلها .. فإن حدث هذا كان
تفكيراً سطحياً لا يبلغ أغوار النفس ..
وأعماق السمور ! ومع هذا كانت المقبات
تعرض سبيل سعادتنا ! كنت أعلم أن
أسرني المحافظة سبيلها العمل الذي كنت
يسبيل أن أقدم عليه ؛ فقد كنا أجمعنا أمرنا
على الزواج .. وكنت أعلم أن هناك غير
ظروف الأسرة ظروف أخرى قاسية تجعلني
أروى النظر في هذه الخطوة الحريصة خطوة
زواجي من سيده !

إن الناس سيديرون الحديث عن رواجي
ويذهبون في تأويله كل مذهب .. ولن يحد
الأمر من فتوى تتج بلقى على مثل
هذا السؤال :

ثم تزوجت من نب .. والمداري

أيها الأصدقاء ! لا نهزأوا بي إذا قلت
لكم إنني كنت بسبيل أن أرتكب يوماً
جريمة مروعة ! .. إنكم لا تستطيعون أن
تصوروا أن مثلي يقدم على قتل ذبابة ؛
ولكن الحقيقة أنني كنت سأقتل .. لا
رجلاً رشيداً .. بل طفلاً عرباً لا تعدو
سنه الرابعة !

دعوني أقص عليكم قصتي فهي لا تخلو
من عبرة وعظة !

كنت في السادسة والعشرين حينما غزا
الحب قلبي ! ولم أكن محدود الطالع لأنني
لم أحب عذراء بل تعلقت بسيدة فارقت
زوجها بعد أن استولدها طفلاً ! وكانت في
التاسعة عشرة حينما تعرفت بها ! ولم
يكن في سماتها شيء ما يبني عن أنها سيدة ..
كانت تبدو عذراء .. أكثر من المداري ..
في جمالها ورشاقها .. وروحها العذبة !
واندفعت إليها اندفاعاً جنونياً .. اندفاع
العاشق السبوء السلوب الإرادة والحق !
ومع أنها أنبأني منذ كان ثقلها الأول أنها
أم لطفل ؛ إلا أنني لم أجدي قولها خطراً

كثيرات ؟

ومع أن حياتي الخاصة حرم مقدس ليس لفضولي أو متطفل أن يدرس أنفه فيه إلا أن الناس درجوا منذ قديم الزمان على أن يدرسوا أنوفهم في حياة الناس رضى هؤلاء أم كرهوا !

كانت هذه الحقائق القاسية تذكره هنا وتذكر صفوى حينما أخلا إلى نفسى .. ولكننى كنت أنسى كل شئ .. كل شئ حينما أكون بين ذراعىها البعلتين ! وعن لى أن أشرك بعض الصحاب .. بعض الأصدقاء فى مشكلتى .. وأن ألتسبب لهم صواب الرأى فانكروا على زواجى من تيب قائلين :

— أياكون أول « بختك » سيدة ؟

كنت لا أعنى ما يمتنون .. ماذا لو بنيت تيب أو بفتاة ما دمت أحبها ؟

ترددت طويلا قبل الإقدام على الزواج من حبيبتي ، وشرعت أقابل بين زواجى منها وانفصالى عنها . فلما رأيت أن مجرد حاطرة الفراق تملأ نفسى هلعاً وقلبي رعباً لم أجد معدى من التسليم بنصيبى القدر وقلت لنفسى إننى مشغوف بها مصبوب عليها ومحال أن أفترق عنها دون أن يؤثر ذلك فى نفسى وأعسابى !

وشئت أن أبحث عن موقفها بالقياس

إلى ولدها ديانو تزوجت فأكدت لى أنها راضية نفسها على العيش بعيداً عنه وأن جدته كافية به وقالت والابتسامة الآسرة على شفيتها :

— لن نشعر أبداً بأن لى طفلاً وزوجتها !

وبقى زواجى منها سرّاً مطلقاً حتى بالسمعة إلى أقرب الناس إلينا .. ولم أكن وثقت أمرى لاستقبال حياتى الجديدة فقبلت أن أدعها يمض الوقت عند أمربها .. وبنيت أوفق إلى مسكن خاص بنا !

والآن تدبروا أيها الأصدقاء موقفى وانظروا كيف أن خطأ يسيراً قد يكون له كل الأثر فى تشكيل حياة الإنسان وتغيير مجراها . لقد رأيت نمة طفلاً عيوراً تدغمه الغيرة العمياء إلى إتيان أعمال شيطانية ولدت فى نفسى نحوه شعور العداء والكراهة والمقت .. هذا الطفل الغريب فى الرابعة من عمره لم يكن يدعنا لحظة واحداً نخلو إلى أنفسنا .. ونحننا نحننا

فما كانت تحتويننا حجرة إلا رأينا الباب يعططق فى قوة وعنف ثم تجلسى الطفل واقفاً أمامنا بسحنته البيضاء يشرع عيبه إلينا فى حقد جنونى ! لم يكن طفلاً غريباً بل مارداً مستعيراً ! وبطل هذا المارد الرحيم ماثلاً أمامنا ليس فيه سوى عيبين قدحان

بالشرر وأراني دون وعي ولا تفكير أراحي
عن أمه ذراعي .. وقد زكت في نفسي
سده ثورة عارمة .. بينما تصعد إليه بصرها
وقول له في غضب يشيع فيه الحنان المستور
— ألم أقل لك لا تدخل إلى هنا ؟
ثم تأخذ في ملاطفته إلى أن يزایل الغرفة
ولكنها بمرور الأيام وترادف الحوادث
أدركت بغربة الأنثى التي لا تخطئ أنني
بدأت أصحو من هدأة الحب الحالم .. وأنتي
شرعت أمير الأشياء .. أدركت أن الطفل
الذي لم يكن له أثر في حياتي سار له الآن
كل الأثر !

وفي يوم كانت فيه مشاعري محتاجة ..
وأعصابي ثائرة، فلم أستطع أن احتفظ بسبات
الحاملة التي ألفت أن أكسوها وجهي
كأما غلبت الطفل .. وقد وقع أن رأيت أحتوى
أمه بين ذراعي غائجه إلينا وفي عينيه تصميم
ومزم ثم ادعني بكيانه الصغير على أمه
وضرع يجذبها من شعرها ليحررها من بين
ذراعي .. وراحت هي ترسل ضحكاتها
الناعمة السعيدة ؛ وكأنما أدرك الطفل قصور
وسبلته وعجزها فانهاهال على ظهرها بقبضتيه
الصغيرتين ضربا ولكما .. وفي غير وعي
ولا إدراك أهويت بجمع يدي على رأسه
في سرية مفيضة مخفية .. كانت قد أثار
الكراهية الثابتة في أعماقي في نور مجنونة

شد هذا الطفل المدلل .. الطفل اللين !
تراخت قبضة الطفل .. وراح يمدق في
في ذهول وضعف .. ووقف منا غير بعيد
لا يتشعب ولا يبكي .. وإعما ينظر إلى
وفي عينيه ذلك البريق الإجماعي .. هذا
الطفل الذي كان لا يعدو الرابطة .. والذي
كان الكلام يتعثر على شفثيه ، عددته
غريبي ، في حبها وحنانها وتفكيرها !
وأدركت بصرى عنه .. وصعدته إليها ..
فاجتلبت في عينيها نظرة قاسية .. سرعان
ما تحولت إلى نظرة عاتبة !

وكان في هذه اللحظة أن عرفت أن حي
لها مهدد بوجود الطفل .. ولم أستطع أن
أداري عواطفى فعلا وجهي وجوم .. وفترت
قبلاتي وخات من الشغف والانفعال ورأيتها
تضميني إلى صدرها في قوة وانساب إلى
صوتها الناعم وهي تقول :
— أيها الطفل الكبير .. أتناور من
صغيري وأنت تعرف أن لك حي كله ..
لك وحدك ؟

ولأول مرة أبقت كذبها !
وتطلعت إلى ولدها ونهرته ولكنه ظل
واقفا لا يريم فقالت في غضب :
— أخرج ..

فضى الطفل في خطوته المتعثرة صوب
الباب وقد استدار إلينا بحسده الأعلى وفي

عنبه نظرات التحدى والقتل !

ونشكل تفكيرى منذ كان هذا الحادث
وشرعت أرنو إلى المستقبل بغير العين التى
اعتدت أن أرنو بها فى الماضى .. لم يعد هو
المستقبل السعيد المسمى الذى طالما رأيته
فى أحلامي ! وإنما هو مستقبل يندثر بالفشل
ويومئى بحجبة الزبلاء !

وكان أفسى ما يحز فى نفسى أن أعلم أن
طفلا صغيرا هو سبب شغوقى وتماسى وأنى
لا حيلة لى فى مقاومته ومناهضته لأنه يتصل
بأمه بأسمى المواطى وأرفعها وأبقاها على
الدهر ! وهذا الطفل هو شاغلى الأول ..
كما عدت أنا شاغله الأول كذلك ! وبات
وكده أن يعكر السفو الذى يكون بينى وبين
أمه .. وكنت أعجب لدهاء الطفل ومكره
المكرن فما أن رأى أخلا إلى أمه حتى
طالبها بمطال لا تكاد تنتهى :

— أمى .. أريد أن آكل ..

— أمى .. أريد أن أخلع الحذاء ..

— أمى .. أريد فرشا ..

— أمى .. أريد أن أنام ..

ولم يكن رغب فى هذه المطالب ، إذا حضرت
له أمه الطعام عرق عنه واجتواه ! وإذا خلعت
له الحذاء ، عاد فأنها أن تعيد وضعه فى
قدميه .. وإذا نقده فرشا ليلايل الفرفة
وقف فى مكانه لا يرم ! وإذا حاولت أن

تهدده لينام ظلت عيناه يقطرين كأنه
ذئب صغير !

كننا نحس هى والطفل وأنا ... ثلاثة
نفوس مضطربة نائرة ! هى تأخذها الهممة
على ولدها وتحقد على ! والطفل يضار من
ويحقد على ! بينما كنت أفسى على الطفل
حب أمه له فحقدت عليهما معا !

وبدأت نعش فى رأسى الأفكار السود !
بدالى أن شمورى بالضجر لأننى تزوجت
من تيب لم يكن أمرا ذا بال بالقياس إلى
ما قاسيته من هذا الطفل الذى أنجبت من
زوجها الأول !

زوجها الأول ... لم لا يضم هذا الرجل
إليه ابنه بعد أن تزوجت أمه ؟ أيتها الأسوءة ،
تدبروا هذه الحقيقة المؤلة وانظروا كيف
أن بعض الرجال لا يفكرون بالمستقبل !
يتزوجون وينسلون ثم يطلقون ! ثم تكون
هذه النتيجة الوخيمة .. أطفال هجرة
آباؤهم ، أو زجت عنهم أمهاتهم ، فتتقعد
لنفوسهم الصغيرة ويلقى بهم إلى قلوب غير
رحيمة .. وأيد غير أمينة .. وإد يجرمون
من الحقان ذلك النبع الصافى ! وهل أملك
إلا أن أعترف بأنى كأحد الذين قدر عليهم
أن يدفع إليهم بطفل من هذا القبيل ، لم
أكن أشعر له فى أعماق نفسى سوى
شمور القتل !

وأقسم لكم غير حانت أنى حاولت
جاءدا أن أجرد من نفسى هذا الشموو
البنيفض .. ولكن ذهبت محاولتى كلها
بددا وقبض الريح !

هجرت هذا البيت اللعين حالما عثرت
على مسكن لنا ... وتنفست الصعداء ...
وبدأت أرسى في خيالى صورة زاهية للمستقبل
المائى السعيد .. هذا هو المش الجليل الذى
كانت صورته تومض في خيالى .. ها هو ذا
يصبح حقيقة واقعة .. فلا طفل صغير بعكر
هنا، ولا أى شئ ...

ودرجت الأيام ولم أر الطفل ... فتبددت
ملائقة من هواجسى وأوهاى ... ولكنى
من فرط هلعى من الطفل ... تحسكت في
سلى من أمه .. كان قد وقر في ذهنى أنها
ستغير من طباعها وتبدل من سلوكها متى
حملت منى فقط البنى بأن أضم إليها ابنها ؟
وبعد أن يتعقد ما بينى وبينها .. كيف يمكن
إلا أن أخضع لإرادتها وأنصاع إلى أمرها ؟
وراحت في أعقاب ذلك تحاول جاهدة
أن تكشف لى عن مفاتها .. وأن تؤكّد
لى صدق عواطفها ... إلا أن هذا زادنى
حرصا على حرص ... وأبدالم أفكر فى أن
أغير سلوكى معها . فظللت دائما الحريص
على ألا أنجب منها أبدا ! وبقيت هكذا وقتا

غير قصير موزع النفس مشترك الذهن ...
تتنازعنى عوامل الثقة بها والريبة فيها . وغدا
ما بينى وبينها أعصاب حبيب ! فأبنا فقد
سيطرته على أعصابه كشف عما استتر من
مشاعره ! ولكنها كانت حديدية الإرادة
فولاذبة الأعصاب .. ولم أكن دونها صلابة
وعزما . فاستمرت الحرب الخفية بينى
وبينها .. وعلى شفى كل منا للآخر
إتسامة كبيرة !

وأحضروا الطفل بضع مرات إلى مدرسى ،
وكانوا يتركونه إلى أن يأتى المساء فيعيدونه
إلى جدته .. كان هو الطفل النيبور الشرير
الذى يلتمس السبيل إلى التحرش بى !
ووقر في ذهنى أن والد الطفل لا جرم
محرم ! إنه كان مزارعا . الانتقام شرعته ..
والفأس أداة هذا الانتقام ... فالذى يحمل
هذه البذرة لا تنحدر إلى ابنه وتترعرع !
والوالد كما يقولون مرأيه ! أى عدل
أبها الأصدقاء فى أن أحمل دونه هذا
المب السكير ! لماذا يتزوج الرجل وينسل
كالحيوان .. ثم يترك ولده مضيقا مهيبص
الجناح لانهياء ... نحن كان والده ربما مائة
فصدور الناس به أشد ضيقا وربما !

ورأيتى بعد هذا تنمو بنفسى رقيقة
طائشة ... رغبة بخنونة فى أن أضرب هذا
الطفل وأعذبه وأشقيه ! .. الطفل الذى

وارتدت إليه العافية الغاربة ليطالمني
بسحته البقيضة . وابتناسمته الخبيثة
من جديد !
وجاءني أمه لتقول لي بعد أن غدا سلبا
معاي :

— سيدي هنا تحت ملاحظتي وإلا انتكس !
واحتدم الغضب في صدرى لأننى كنت
أنتظر يوم رحيله في صبر أرعن فصحت بها :
— لن يبقى غير هذه الليلة . أنعرفين ؟
وشاع الغضب في وجهها وهى تقول
— بل يتي . وإلا ذهبت معه إلى أمى !
— ادعني معه إلى الجحيم !

وزايلت المنزل كأننى ما أكون إنسانا !
وانطلقت إلى الطريق عتصنا أفكارى !
كانت في الجو تدر عاصفة مقبلة من بعيد !
ولكننى ظننت ذاهلا بأفكارى عن العاصفة
والوجود والخلق جيما ! تحقق لي أننى جانبت
الصواب حينما لم أقدر عاصفة الأومة . كنت
في نمرة عاطفى سادرا في أوهام الحب وسابحا
في خيالاته فلم أدرك هذه الحقيقة القرية !
وبعد أن مضيت على وجهى طويلا في
الطرق دون قصد ولا غاية .. أبت إلى
المنزل لأن السماء أرسلت وعودها وسبولها .
ودلفت من فوري إلى غرفة النوم . وأصأت
النور . رأيته مستغرقة في النوم والطفل بين
ذراعيها تتهدى به الموت أن ينزع منها .

بأكل من بيتي .. وبتار مني وبحقد على ! ..
الطفل الذي تربص بي أمه الدوائر كيما
تكرهني على الإيقان عليه ! كرهته كراهة
مرة .. !

عدته سارقا ! . محرما ! . وكنت أشقى
الشقاء الكبير عندما أراه يركض في بيتي
على رغم إدادتي كما يركض الأطفال ، ويلهو
ويلعب كما يلهو ويلعبون !

حدث أيها الأصدقاء ذات يوم ..
هذا الذي أنا بسبيل أن أقوله لكم ! بعث
به إلينا جدته مصابا بالتهاب رئوى .
وتركت لأمه أن تسهر على برئه وعلاجه .
خيل لي بادي الأمر أننى جردت نفسى
من نوازع الشر ، وأننى نسيت كراهيتي
لطفل برى لا يعنى ولا يقتل ! . فذهبت به
إلى الطبيب وأحضرت له الدواء وسهرت
أمه على حقنه بالصل الشافي ! ..

سنة أيام أيها الأصدقاء لم يغمض لي فيها
جفن ، حتى أشرقت على الهوس والجنون .
وهالتي في ظل مشاعري الجديدة أن أرى
الطفل الذي كان بسبيل أن يموت فيخلو لي
الجو مع أمه ونسفو الحياة ؟ نشاء له الأقدار
المصرفة أن يبرأ من مرضه على يدي ..
وأن يتد به العمر ليكون الخطر المائل دائما
لسعادتي وهنأني ! . مسبح الله مابه . وزايله
المرض ...

وراحت الخواطر تتراكم في ذهني .. وجأه
رؤيت من بينها خاطرة فذة ! خاطرة بجنونة !
إن الطفل ما زال في دور النقاة ! فلو
فتحت الآن نافذة الغرفة على مصراعها ،
ونحيت الملابس والأغطية عن صدره المريض .
في هذا البرد القارس والمطر الهائل لارتد
إليه المرض عنيفا قتالا !

أدركت هذه الخاطرة في ذهني طويلا وأنا
أنضو عني ثيابي المفضلة بماء المطر . وما كنت
أفرغ من خلعها وارتياء منامتي ومطاني
المنزلي حتى استعملت منها نظرة خاطمة .
فرايتها ما زالا مستغرقين في النوم !

مضيت في صمت وهدوء إلى النافذة
وفتحتها على مصراعها . أحسست بتيار
الهواء يتدفق إلى الغرفة باردا قارسا ميمنا !
ووقفت برهة ألقط أنفاسي وأوقف من
البرد . ثم مضيت في خطوات وائية . في
خطوات مخنوقة إلى الفراش . وفي خفة
ولطف نحيت الثياب والأغطية عن جسده ،
وفي حصة كان صدره التقط المريض يتلقى
النفحات الأولى للبرد القاتل !

ومرت لحظات رهيبية راح يمدحها الطفل
يسعل ، فاذا الزرقعة تعلوه ، وإذا أنفاسه

تتلاحق ..

كل نبي كان يسير وفق الفكرة الشيطانية
التي كانت تمسش في رأسي ! كل شيء ..
وينتهي الأمر !

أبها الأصدقاء لا يرموني بالوحشية
والقساوة . فقد رأيت كم هو رقيق ذلك
الحاجر الذي يفصل أشرف الناس وأكرمهم
عنصرأ عن الجريمة .. لذلك لم أنجز العمل
الإجرامي الذي شرعت فيه !

استيقظ ضميري فجأة واستهوت أن
أكون قائلا أنها . فأنجحت من فوري صور
النافذة فأغلقتها ، وإلى الطفل فأحكمت
تغطيته بالثياب والأغطية ! ثم هذا كله
في لحظات مرت كأنها الأبد ! ولما لم تكن
بي رغبة في النوم ولا قدرة عليه فقد دلفت
إلى غرفة مكنتي وظللت هناك مسهدا أرقا .
أقلب وجوه الرأي وفي قلبي كتابة كبيرة !
وعندما طالعنتي آخر الأمر تباشير الصباح
كنت قد أجمعت رأيي على فكرة واحدة هي
أن أفرق عن الطفل وأمه قبل أن يتعزق
ذلك الستار الرقيق الذي يفصلني كما يفصل
أي واحد منكم عن الجريمة

كمال رسم